انتعاشات باريسية حرة

15/04/2010

كنت أبحث عن حرية تتيح للذات أن .لطالما كان يراودني ذلك البحث عن شيئ مفقود لم أدركه إال بعد سنوات طويلة

.تتقمص في كل كائن كي تندمج مع الطبيعة اآلم، كما يحلو للطفل في الوعيه الرجوع إلى رحم أمه

ربما نعيش انفصال ذراتنا عن الحاضنة الكبرى بشكل مأساوي فنحاول جاهدين أن نفهم السبب والحكمة في ذلك

االنفصال، كما يعيش الطفل حسب مفهوم "قلق الوالدة" انفصاله عن اآلم وخروجه من رحمها، انه قلق كامن يستبطنه

.دون أن يعيه

ومن هنا علينا رمي جميع الثوابت التي ترعرعنا عليها في بلد المنشأ، فاإلنسان متحول وجميع القيم والمعتقدات التي

نبنيها هي متحوالت مثلنا، قد

فأحيانا نضطر إلى اختيار بلدا

تجاوز إلى حد ما أو باآلحرى سبق بلدانا في البحث عن

إيجاد توازن ما بين حرية آلنا وبين المصلحة الجماعية، فكانت له أبحاثه ومحاوالته الجدية لقرون عديدة في البحث

.عن تاريخ اإلنسان وفهمه إلنشاء معادالت فكرية توسعية

وتبدأ... رحلة التفتيش عن طرف خيط يقودنا إلى اإلنسان الحر أو إلى كل كائن حي لمالمسة النظام الطبيعي، إذ علينا

.أن نبدأ تدريجيا بالبحث عن الحرية، مع أن الحرية التامة ربما لن نجدها إال بعد رجوع ذراتنا إلى غالفها الطبيعي

،

جديدا

ومنهجا

وسط هذه االنشغاالت، تضيع المفاهيم والقيم المغلفة بكلمات براقة ترعرعنا عليها، لتعطي أفكارا

لنكسر بعدها بعض الثوابت والحواجز التي تعيق تقدم البشرية، فنتساءل عن معنى الحياة والفائدة منها، فنستنتج بعد

.عراك، اننا ما وجدنا لنتوقف ونتشبث بثوابت قديمة، بل لنتمايل ونتراقص مع التغيرات الحياتية

أن األلوروبيين أو الغربيين بشكل عام قد استطاعوا الوصول إلى ال أعتقد أن اوروبا جنة على األرض وال أزعم أن

مفاهيم وقيم إنسانية نبيلة، إال أننا كأفراد باحثين عن أعماق الذات نتمتع وبشكل واضح و من غير خجل بالتعبيرعن

.أفكارنا وكياننا

كثير منا من شعر بخيبات أمل متكررة ألسباب عديدة، منها النفاق المتبع في تبني أسلوب مناهض للمعايير اإلنسانية

التي تجهر بها المجتمعات الغربية. ومع معارضتي الشديدة للمنهج واألسلوب المتبع في عالج بعض القضايا، إال انني

أشعر ببعض االرتياح إلى ما آلت اليه أفكاري وإلى الخطوات

ال أستطيع نسف جميع التجارب المكتسبة، فأنا شخصيا

الصغيرة التي تقدمت بها في مناشدة الفكر الحر. ال ننسى أن المجتمع الذي يتيح مساحة للتعبير وحرية النقد لكل شيئ

.وألي شيئ هو مجتمع بناء، يحترم أفراده فيساويهم جميعا أمام القانون

حمراء يمكن لكل فرد التحرك ضمنها

ثمة من سيتساءل عن هذه الحدود التي .طبعا ال بد لهذا المجتمع أن يعتمد حدودا

بينهم وبين الثقافات

تشكل حاجزا ألخرى، واالدعاء بأن هذه الحرية هي لألفراد الذين يشربون من كأس الثقافة

الغربية، بينما تتحول هذه الثقافة إلى آلة فتك لكل الثقافات ألخرى المختلفة. لذا ال بد لي أن أوضح بأن البشرية ال

يمكنها التراجع وما تعتقده شعوب وأمم اليوم، كان يعتقده الغربيون في قرون سابقة، وأعتقد أن لهم الحق في الدفاع

عن أفكارهم وفي مواجهة أي تيار يريد أن يكبل الفكر ويحد العقل ليرجعه إلى خرافات قامت بهتك حياة أفراد. ما

للغرب بل

.أبرره آلن ليس حبا هو حب للفكر وللحرية التي أسعى و تسعى إليها البشرية عامة

ال يمارس الغرب تأثيره على الشعوب ألخرى بالتنويم المغناطيسي، بل عبر مناداة إنسانية للحصول على كفاءات أو

اداء جسدي أو فيزيائي لنظام معين، أي أننا جميعا و من غير استثناء مطالبون بالوصول إلى الحرية. هذه الحرية ال

يمكنها إال أن تكون شاملة وأن تتبنى نظرة تجمع تحت غطائها كل شيئ حي، هكذا نستطيع القول إن ماوصل إليه

الغرب ليس حكرا وليدة أفكاره بل هي من أثر التراكم التاريخي والمعرفي المنتقل من بلد عليه، وثقافته اليوم ليست

إلى آخر، فما آل اليه الغرب هو حصيلة حضارات ولدت منذ وجدت البشرية بل أكثر من ذلك، منذ نشأت الحياة على

.كوكبنا

لقد تعلمنا من تجاربنا البشرية أن االنعطافات التاريخية تبدأ عند نقطة االلتزام بفكر حر غير مقيد، فكر قابل للتفكيك

والهدم ومن ثم الترميم. حصيلة هذه التجارب التاريخية موجودة اليوم في فرنسا والغرب إال أن الدول الغربية لم تنتهي

بعد من رسم حلتها بشكل كامل ومازال لديها الكثير، كما يمكنها التعلم من تجارب أفراد يأتون اليها بحلى أخرى

.وثقافات مختلفة إلضفاء شيئا من الجمال عليهافي جعبتي الكثير من النقد والمديح لشعوب الغرب ولفرنسا بالتحديد، فهنا تعلمت كيف أتنفس الهواء الفاسد ألحوله إلى

هواء صالح يشرح صدري ويوسعه بعد ضيق، بيد أنني سأتطرق إلى مشكلة سرطانية أصابت اإلنسانية بشكل عام

والغرب بشكل خاص، وهي اآلن تتفاقم خفية، فالكل يخجل من التعبير عنها بشكل واضح لصرامة القوانين المتعلقة

.بالعنصرية، إال أن العنصرية ورغبة التميز عن اآلخر، تختفي وراء عبارات شوفينية

أو ليست الشوفينية هي وجه آخر للعنصرية؟

وإذ ندقق قليالً في هذه الظاهرة نالحظ أن العنصرية هي شكل متطور من أشكال االثنية االنوية،)عندما أتكلم هنا عن

الشكل المتطور، ال أعني به الشكل التقدمي فال عالقة مترابطة بين التطور والتقدم (. وإذا تمعنا أكثر في االثنية

االنوية البدائية، نراها مرحلة متطورة لرفض وكره الغريب. لقد نشأ شعور كره الغريب منذ نشأة الجماعة، لذا نجده

.عند الكائنات الحية التي تعيش بشكل جماعي

لنعد إلى العنصرية حيث نرى ميل اإلنسان نحو طبيعته البدائية والحيوانية ونرى أن كل العلوم والفلسفة المتراكمة لم

.تكبح هذا الطبع البدائي الذي ولد مع الجماعة

نعم، جميع الدول تعاني من الموروث البدائي فاإلنسان واحد أينما كان، وذلك عن آخر هو فكره

إن ما يميز إنسانا

.الحر وما يميز مجتمعا الذي يتكفل بحماية أفراده مهما تعارضت أفكارهم مع أسسه الجماعية عن آخر هو قانونه

لم ترتق بعد الكتلة الجماعية الغربية في مفاهيمها ومعاييرها اإلنسانية وما في أيدي بسطائها

زالت الشوفينية سالحا

فيسعون

الذين اليملكون شيئا لإلفتخار بأوطانهم وقوانينهم ومفكريهم. نحن بحاجة االن إلى صحوة فكرية وإلى ُ ميزا

كف الحكومات الغربية عن زيادة وتيرة الشوفينية من خالل اعالمها المسطح. ذلك أن االكتفاء والتباهي هما من أشد

.العوامل المدمرة للحضارات اإلنسانية بما فيها الحضارة الغربية

تبدو فرنسا لي في ضوء ما سبق، جملة من المشاعر المتناقضة أحس بها كلما ألفظ اسمها، فانا تائهة بينها، إال ان

االستبداد الملكي أوالً تاريخها المناضل الذي استطاع كسر لينتهي إلى رفض أي قيد يحد من حرية الفرنسيين،

يجعلني، هذا التاريخ، أشعر ببعض االرتياح النفسي الختياري لها، فهو يؤكد لي ما أعتقدته وأعتقده إلى االن بأن

.االنسان هو صانع االقدار

ال نولد أبطاالً قدرنا وقدري ارتبط لفترة معينة بهذا البلد الذي أو جبناء، انما مسارنا والتزامنا في هذه الحياة يحددان

يحرك في أعماقي جميع استعداداتي النفسية لالنفجار فتتملكني رغبة االنصهار بالطبيعة، حيث ال أستطيع فصل

.تجاربي عن جيناتي فأنا حصيلة مورثات وتأثير بيئة المنشأ والتجارب المتراكمة بعدها

شدني إلى باريس، بحثي الالمنتهي عن حرية بمضمونها العميق وليس التشبث بنتائج ظاهرية سطحية، فالحرية في

البدء اختيار ومن ثم التزام بما نختاره حتى وإن كانت له عواقب غير مرغوبة، فنحن نرغب بالحرية للحرية نفسها .

ال لمصالح أنوية صغيرة فهي التي تقودنا إلى مفاهيم جديدة وإلى ذلك الوقود اإلنساني الضروري للحياة كضرورة

.الهواء للتنفس

أعرف أن باريس لن تعطيني ما أبحث عنه وذلك العتقادي انه ال مدينة أو بلد أستطاع أن يتجاوز اإلطار الضيق

الذي يحصر اإلنسان داخل دائرة عرقية وقومية وأفكار أخرى تصب في مصلحة جماعته، إال انه في باريس يمكن

على األلقل وضمن هذه المعتقدات الضيقة أن يحدد الفرد إذا أراد طريقه ومساره، فله الحق في التفرد بأرائه وأفكاره

().نتكلم هنا عن حقوق االفراد وافساح المجال الحر للبحث عن ابداعات جديدة

لننظر إلى وجودنا في هذه الحياة، نرى أن رحلتنا القصيرة فيها تصب قبل كل شيء في سعي اإلنسان وراء ازدياد

نحو

وعيه لتشمل جميع الكائنات الحية فاإلنسان استطاع ومنذ ماليين السنين أن يطور جهازه الحسي لالرتقاء تدريجيا

.أفكار خارجة عن إطارها الضيق المحدود

رحلة البشرية هي رحلة واحدة تصب في هدف واحد وهو الحرية، حيث اليمكن العثور عليها دون التحرر من

الرغبات األلنوية التي تكبلنا، وعندها يمكننا الرقي بأحاسيسنا وبالتالي التعامل مع األلفكار الجديدة المطروحة بتناغم

.منسجم

حرية، أبحث عنها في كافة بقاع األلرض، فأفتش دوما عن أفكار ورؤى انفلتت من مضمون اإلنتماء الجغرافي

المحدود واالنتماء النوعي لتحثني على الغوص في األلعماق والتبعثر في الفضاءات الرحبة ألتجاوز المسافات

الملموسة وأعي جميع المشاعر المحسوسة في كل كائن حي ألتحد معها وألمس قاعها حتى أتعرف إلى ذاتي فتكون

.رحلتي المعرفية حصيلة الذات الكامنة في كل الكائنات وفي كل مكان وزمانها أنا أعود قليال إلى مدينتي التي كنت أعشقها يوما مدينة النور كما يرغب بوصفها عشاقها من االيام، باريس

للنور أو االشعاع الفكري؟

من االيام منبرا

ومحبيها، فأتساءل إن كنت قد اعتبرتها يوما

ال أذكر ماذا كانت تعني لي، أذكر فقط انني عشقتها في زمن مضى وكرهتها في زمن آخر، مدينة مليئة بالتناقضات

.كداخلنا المتصارع بين حاجاتنا وعاداتنا وبين الرغبة في تحرير هذا الداخل من كوابحه

باريس تعكس طبيعتنا االنسانية ببشاعتها وجمالها فهي تستقطب جميع الجنسيات والقوميات واألديان والمعتقدات

. وجميع الميول النفسية والجسدية

ال ترفض أحدا إال انها تمارس على الجميع ضغوطاتها النفسية فينفر المرء هاربا

عنها آالف الأميال. انها أشبه بفتاة أقنعتنا بجمالها وفرضته علينا كمفهوم مطلق حتى وغن كنا ال نؤمن بالمطلق

نفسه، فقد عرفت كيف تغسل أدمغتنا وتجعلنا بشكل الواع نطلق عليها ما ترغبه، وجردتنا من حقنا في طعن

.مقوماتها حتى ان فعلنا بتنا جهلة للجمال والغبداع والحرية

للمازوشية كي أقبل هذه المدينة التي تهيل علينا سوط السادية كي نستلذ قليال ونتعذب كثيرا

سوى انني ما ملت يوما

وعادات قديمة

ما تفرضه علينا من مفاهيم وأسس ومصطلحات. فقد تعلمت التفكيك والتحطيم بعد أن حطمت قيودا

.وبنيت من حطامها مفرداتي ومعاييري للفن والنور واإلبداع

فهل يحق لباريس االستيالء على صفة النور أبدا ومطلقا كما يستولي الملك على العرش؟

اجيب بالعودة قليال إلى هذا المصطلح المستلهم من عصور التنوير. فما هو التنوير وما معناه ؟

اعتبر "كانط" إن التنوير هو حرية الحكم والعقل. فالتنوير هو الرؤية الواضحة لما نشاهد. أي الحكم من خالل الذات

الفردية على كل االسس والمفاهيم والعادات وفهم الطرق التي أدت إلى بديهيات علمية. فال يكفينا أن نردد ما يقوله

العلماء أو مؤسسو النظريات كي نلقب أنفسنا بالمتنورين بل ينبغي أن نخضع كل شيئ للنقد الذاتي لنستنتج من بعد

أحكاما مرشحة هي االخرى دائما للتحطيم

.وأبدا

من هنا أعتبر انه لمن المجحف في حق مدن أخرى قدمت وتقدم للبشرية أفكارا جديدة أن نحرمها من لقب "عاصمة

النور". لقد توقفت باريس عن العطاء منذ زمن وأصبحت كالعجوز التي تستسلم لمباضع الجراحين في عمليات تجميل

متتالية علها تستأنف غوايتها وبريقها الضائع. نعم تبدو باريس اليوم عاجزة عن قتل داخلها الكهل المترهل لتولد من

.جديد بداخل متجدد أكثر شبابا

ثمة من يغضب لهذا الحكم على هذه المدينة البراقة. والمختالفي عن جميع الذين سلموها مفاتيح الجمال. والضير في

ذلك فأنا أع رض االشياء أحكامي الذاتية وأحلل الكلمات

والمفردات و القيم ألبني عليها أحكاما مستمدة من تجاربي

وقراءاتي وخصائصي الشخصية ومقارنتها بخصائص وتجارب آخرين وأسعى في هذه السيرورة للتجرد من مشاعر

مستلهمة، من تاريخ قديم، ناهيكم انني أشعر بأنه من واجبي أن أساعد باريس على التحرر من القاب تجردها من

.جوهرها الحر

لإللهام

باريس، اعتبرها بعض الفالسفة واألدباء في عصور التنوير مركزا بل اعتبرت فرنسا فضا ء للنور ألنها

امتلكت الحماس والشجاعة في درء اإلستبداد فكانت ملهمة للمفكرين والشعراء، ومع ذلك نواصل طرح السؤال عن

حقها باالحتفاظ بهذا اللقب إلى األبد وعلى مدار الزمن. ألم يعلمنا تاريخها ان اإلنسان جدير بتغيير المفاهيم، وان

الحرية طريق طويل يبدأ أوالً والقياس من خاللّه، أو ليس اإلنسان الحر هو الذي يحكم على ألمور واألشياء بالفكر

...من خالل دراسة مجردة تبدأ من ذاته أوال وتمتد إلى الالمتناهي

أو ليس اجحافا في حق باريس، في حق هذه المدينة التي ناضلت في زمن ما والباحثة عن الحرية في زمن آخر، أن

جميع النعوت التي نسجنها فيها ضمن اطار ضيق وسطحي، علها تتمكن من تحرمها من تجديد كينونتها عبر نفض

اطالق أفكار ومفاهيم جديدة و تتحرر من كل المفردات الوهمية المهمشة ؟ ذلك ان الجمال واإلبداع متغيران والكائن

.المسجون في مفردات سطحية والمعلق على نظرة آلخرين، هو بالتأكيد إنسان زائل وبائس

وألنني أحببت باريس يوما، فأنا أرغب بفك أسرها من جميع التسميات علها تتعمق أكثر في ذاتها وكيانها لتتشكل من

ألسبح في فضاءات تمردها

.جديد وتخلق معايير جديدة فأتوحد معها مجددا

قيل عن باريس الكثير إال انني ال أجد فيها إال القليل، ربما ألن عيني تعودت على أسلوب بنائها الفني فأصبح نظري

يستسيغ كل المدن التي ال تشبهها، على رؤية القبح في الجمال واستخراج

وربما ألن النظر مع الوقت يصبح قادرا

.الجمال من القباحة

لقد أصبحت بعد كل السنوات التي أمضيتها هنا كالسمكة في حوض نظيف ومزخرف تحيطه الورود فصرت أتطلع بأوساخها. نعم أشعر وكأن هذه المدينة تلتف كاألفعى حولي وتطبق على إلى العوم في أنهر وبحور واسعة غير عابئة

لفترات قصيرة حتى ال تبتلعني حية فأنا في عراك دائم مع مفاهيمها الجمالية

عنقي وتقطع أنفاسي، لذا أغادرها دوما

.وشوفينيتها الالمحدودة

وربما أستطيع القول أيضا ان باريس كما هي، ساعدتني على قلب الموازين فأصبحت أتمعن بالصيغ المتداولة قبل

االنجراف إليها وتبنيها، كما حثتني على تجريد معظم العبارات واألفكار إلى حروف متناثرة، بل ربما أوحت لي

بوجوب الغوص في الذات لفهم الذوات االخرى، فهي من قادتني إلى مالمسة شعوري الضائع لالحساس بالكائنات

.االخرى كما علمتني كيف أنتصر على الكره والحب في آن واحد

وال أعلم بعد كل ذلك ماذا علمتني؟ إال ...علمتني أيضا، كيف أحول التجربة السيئة إلى حسنة لالستفادة منها، علمتني

.انني أعلم انني تصالحت معها وتصالحت مع ذاتي

تتملكني خواطر كثيرة متعارضة ومتداخلة هي أشبه بهيأة هذه المدينة فهي تعكس نفسها في شخصية كل فرد، فنراها

الدميمة في أعين العاجزين عن التوغل في أعماقها ونراها ماكرة ولصة الجميلة الساحرة في أعين السذج والقبيحة

وغانية في أعين آخرين وأنا أراها كما أرى نفسي، فهي كل التحوالت والتغيرات، هي المتقمصة في كل المفردات و

العبارات الجميلة والدميمة والسطحية والعميقة، هي تلك التنهدات و آلهات الخارجة من معذبيها ومحبيها، هي

.العاشقة المتجددة الهاربة من قيد سجانها